مسلسل «رجال الظل – عملية رأس الأفعى».. عندما تصبح الدراما الرسمية رسائل أمنية وتزييف للوعي

الخميس 5 فبراير 2026 05:00 م

يأتي مسلسل رجال الظل – عملية رأس الأفعى في رمضان 2026 كحلقة جديدة في مشروع درامي واضح: تحويل الشاشة المصرية إلى منبر واحد لخطاب السلطة، وتثبيت رواية رسمية عن «الإرهاب» و«الأمن القومي» تُجرَّد فيها جماعة الإخوان المسلمين من أي حضور وطني أو شرعية شعبية، وتُقدَّم حصريًا كجماعة تآمر وعنف، في تجاهل كامل لكونها، في نظر قطاع واسع من المصريين، ضلعًا أصيلًا من نسيج المجتمع، وصاحبة تفويض انتخابي لم تمنح مثله صناديق الاقتراع لأي قوة أخرى في تاريخ مصر الحديث.

المسلسل، المعروض حصريًا على شاشة ON E ومنصة WATCH IT، من بطولة أمير كرارة وشريف منير وعودة ماجدة زكي، ومن تأليف هاني سرحان وإخراج محمد بكير وإنتاج سينرجي، يُقدَّم في الصحافة الموالية باعتباره «ملحمة وطنية مستوحاة من وقائع حقيقية» تكشف «بطولات أجهزة الدولة في مواجهة التنظيمات الإرهابية» و«إسقاط العقل المدبر لهذه التنظيمات».

لكن خلف هذه العبارة البراقة «مستوحى من وقائع حقيقية» تجري عملية أعمق: إعادة كتابة الوعي الجمعي، وتثبيت نسخة واحدة من التاريخ الحديث لمصر، تُمحى فيها حقيقة أن الرئيس الشهيد الدكتور محمد مرسي كان أول رئيس مدني منتخب في انتخابات وُصفت على نطاق واسع بأنها أول انتخابات رئاسية حرة تنافسية في البلاد، وأن جماعة الإخوان والقوى المتحالفة معها جاءت عبر صناديق لم تملك السلطة حتى اليوم أن تثبت تزويرها أمام أي جهة دولية محترمة.

دراما على مقاس الأمن الوطني: من «الملحمة الوطنية» إلى بروباغندا صريحة

الخطاب الترويجي للمسلسل واضح: عمل «أكشن أمني سياسي» يتتبع عملية «رأس الأفعى» التي تستهدف «إسقاط العقل المالي والمدبر للتنظيمات الإرهابية» في إشارة مباشرة إلى قيادات محسوبة على الإخوان، مع تأكيد أن العمل «يوثّق بطولات الأمن الوطني في حماية الوطن من قوى الظل».

بهذا البناء، لا يعود المسلسل مجرد خيال درامي، بل يتحول إلى امتداد فني لملفات القضايا التي صاغتها أجهزة الأمن تحت لافتة «الإرهاب» بعد 2013، حيث يكفي أن تُلصق بتهمة «الانتماء إلى جماعة محظورة» أو «مساعدة تنظيم إرهابي» حتى يُفتح الباب أمام أحكام قاسية ومؤبدات وإعدامات، كثير منها وثقت منظمات دولية أنها صادرة بعد محاكمات تفتقر لأبسط معايير العدالة، وتعتمد في الغالب على تحريات أمنية مبتسرة لا تُقدَّم فيها أدلة مادية حقيقية.

حين يعلن المسلسل أنه «مستند إلى وقائع حقيقية»، بينما يعرف المتابع أن هذه «الوقائع» نفسها موضع تشكيك حقوقي وقانوني واسع، فإننا لا نكون أمام توثيق، بل أمام محاولة لتثبيت رواية السلطة باعتبارها الحقيقة الوحيدة، وإكسابها شرعية وجدانية عن طريق الفن.
هكذا تتحول الشاشة إلى ما يشبه «محكمة استثنائية» جماهيرية، تُعاد فيها محاكمة الإخوان وكل المعارضين على الهواء، دون دفاع حقيقي، ودون إتاحة أي مساحة لصوت آخر أو سردية مختلفة.

شيطنة الإخوان وإعدام الحقيقة: من صندوق الانتخاب إلى قفص الإرهاب

منذ انقلاب الثالث من يوليو 2013، بنت السلطة الحالية بقيادة عبد الفتاح السيسي سرديتها الأساسية على معادلة واحدة: «دولة في مواجهة تنظيم إرهابي».

في هـذه المعادلـة يتـم اختـزال الإخـوان مـن قـوة اجتماعيـة وسياسـية لهـا امتـداد تـاريخي في الجامعـات والنقابـات والشـارع، إلى «خليـة» و«تمويل» و«مخطط» و«رأس أفعى».

الحقيقـة الـتي يحـاول المسـلسل وأشـباهه طمسـها أن الإخـوان، سـواء اختلفت معهم أو اتفقت، دخلوا معركـة السـياسة من بابهـا العلني: حزب، وبرنامج، وانتخابات برلمانية ورئاسية شهدت هيئات مراقبة دولية وإقليمية بأنها تنافسية حقيقية، رغم كل العيوب.
خلال العام الذي تولى فيه مرسي الحكم، لم تُسجل بحق حكومته فضائح نهب منظَّم للمال العام على نمط ما عرفته مصر في عقود ما قبل الثورة؛ وحتى بعـد الإطاحـة به، ظـل تركيز الاتهامـات على «الإرهـاب» و«التخـابر» و«العنف»، بينمـا لم تظهر ملفـات جـادة تتعلق بفسـاد مالي شخصي للرئيس أو كبار قيادات الجماعة، على عكس ما عرفته الأنظمة السابقة واللاحقة.

منظمـات دوليـة مثـل «هيومن رايتس ووتش» و«العفو الدوليـة» وصـفت أحكامًـا جماعيـة صـدرت ضـد قيـادات وأعضاء في الإخوان بأنها مبنية على «أدلـة شـحيحة أو منعدمـة» و«محاكمات جائرة ذات دوافع سياسـية»، ووصل الأمر إلى اعتبار محاكمـة مرسـي نفسه «محاكمـة ذات طابع سياسي» تفتقر لشروط المحاكمة العادلة.

مع ذلـك، لا يقترب «رجال الظل» من أي من هـذه الحقائق؛ لا يقترب من مشاهـد الفض الـدموي لاعتصام رابعـة، ولا من آلاف المعتقلين، ولا من مئات أحكام الإعدام الجماعية التي اعتبرتها منظمات حقوقية «مهزلة قضائية».
كل ما يقدمه هو صورة مسـطّحة: ضابط شجاع يلاحق «الخونة»، وتنظيم سرّي يتآمر في العتمة، وشعب صامت يحتاج فقط أن يعرف بطولات «رجال الظل» ليصفق ويصمت.

بهـذا المعنى، لا يكتفي المسـلسل بتشويه الإخـوان كجماعـة، بـل يشـيطن فكرة المعارضـة من الأصل، ويحوّل أي مشـروع وطني بـديل إلى شبهـة «اخـتراق» أو «تنظيم» أو «رأس أفعى» جديـدة، بمـا يضـرب فكرة التعدديـة من جـذورها، ويُقنـع الجمهـور بـأن البـديل الوحيـد للسـلطة القائمة هو الفوضى والإرهاب.

معركة الوعي الحقيقية: ليست على شاشات الشؤون المعنوية

تحـاول الدولـة ترويـج «رجـال الظـل – عمليـة رأس الأفعى» كجزء مـن «معركـة الـوعي» في مواجهـة مـا تسـميه «حروب الجيـل الرابـع»، لكن المعركة الحقيقية ليست بين مسلسل وإشاعة، بل بين واقع يعيشه المصريون يوميًا، ودراما تحاول تجميل هذا الواقع وتسطيح أسبابه.

المصـري الـذي يقف في طـابور العيش، أو يـدفع فاتورة كهرباء وبنزين مضاعَفـة، أو يرى عشـرات الآلاف في السـجون بتهم سياسـية، يـدرك بالفطرة أن حكاية البلد أعقد كثيرًا من ثنائية «بطل وطني» في مواجهة «رأس أفعى».
وحين يرى أن نفس السلطة التي تحارب الإخوان بالمسلسلات تفاوض مؤسسات دولية، وتقترض وتبيع أصول الدولة وتُحَمِّل الأجيال القادمة جبالًا من الـديون، سـيعرف أن الخطر الحقيقي على الوطن ليس تنظيمًا واحـدًا مهمـا كان وزنه، بل مسار سياسـي كامل يحاول إخفاء فشـله الاقتصادي والاجتماعي خلف شماعة ثابتة اسمها «الإرهاب».

في هذا السـياق، يصبح الدفاع عن حقيقة أن الإخوان جزء من النسيج الوطني، وأنهم وصلوا إلى السلطة عبر انتخابات لم تُثبت تزويرها، وأن الاتهامـات التي لاحقتهم لاحقًـا تحوم حولهـا شـبهات التسـييس وانعـدام العدالـة، ليس «انحيـازًا تنظيميًـا»، بل دفاعًا عن مبـدأ: أن الخصومة السياسية مهما اشتدت لا تُدار بالمشانق والدراما الأمنية، بل بالصندوق المفتوح والقضاء المستقل والجدل الحر.

يمكن لمثل هذه المسلسلات أن تحصد نسب مشاهدة عالية، وأن تصنع من بعض الوجوه الفنية أبطالًا في عين السـلطة، لكنها لا تستطيع أن تمحو من ذاكرة المصريين أن هنـاك نصف قصـة غائبًا عمـدًا: قصـة تيـار سياسـي واجتمـاعي كبير، جرى عزله وشـيطنته وقمعه تحت لافتـة «الإرهـاب»، بينمـا تُكتب على الشاشـات نسـخة وحيـدة من الحكايـة تقـول: لا وطن إلا مـا ترويه الـدراما، ولا حقيقـة إلا مـا تعتمـدُه الشـؤون المعنوية.